مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــــ المجلد: 10 / العـدد:02 (جويلية2022) ص 430– 445
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

البحرية العثمانية بين إنجازاتها في البحر الأبيض المتوسط وإخفاقاتها في البحار الشّرقية خلال القرن 10هـ/ 16م

The Ottoman navy, between its achievements in the Mediterranean sea and its failures in the eastern seas during the 10th century of hejir/ 16thc.ad

طالب دكتوراه: محمود تركية
TEURKIA Mahmoud
جامعة الجزائر2"أبو القاسم سعد الله"– قسم التاريخ(الجزائر) mahmoud.teurkia@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/12/11	تاريخ القبول: 2022/05/16	تاريخ النشر: 2022/07/14

الملخص: يتناول الموضوع دراسة عامة لنشاط البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م ومواجهتها للقوى البحرية الأوروبية هناك، ونشاطاتها بالبحار الشرقية من خلال مواجهتها للأساطيل البرتغالية، وليس المقصود هنا دراسة الوجود العثماني والمسيحي في هذه المناطق، وإنّما تسليط الضّوء على أساليب الصّراع التي اعتمدوها في المنطقتين وعوامل نجاحهم في البحر الأبيض المتوسط وإخفاقهم في البحار الشرقية.

ويتبين لنا من خلال هذه الدّراسة، أنّ الأساليب والوسائل التي اعتمدتها الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط كانت معروفة لدى العثمانيين، في حين لم يكونوا على دراية لا بخبايا الملاحة في البحار الشرقية ولا بالأساليب ولا بالوسائل التي كان البرتغاليون يستعملونها هناك.

الكلمات المفتاحية: البرتغال، البحار الشرقية، الدولة العثمانية، الأساطيل، مصر.

Abstract

This study deals with the ottoman navy activity in the Mediterranean during the16th C and its confrontations with the European navy forces, and their activities in the eastern seas during their confrontations with the Portuguese fleets.

Here, the existence of the Ottomans and the Christians is not important, but the focus is on the strategies of the conflict in the two regions and the factors of their success in the Mediterranean and their failures in the eastern sea.

Besides, the means and the strategies used by the European antagonist, were known by the Ottomans, meanwhile the latter ignored the secrets of navigation in eastern seas and the strategies and means used by the Portuguese there.

Keywords: The Portuguese, The Eastern seas, ottoman empire, The Fleets, Egypt.

المؤلف المرسل: محمود تركية ، **الإيميل**: mahmoud.teurkia@univ-alger2.dz

1.مقدمة:

تعرّضت البلاد الإسلاميّة منذ بداية القرن16م/10هـ للتّحرشات الأوروبية الصليبية مشرقاً ومغرباً، ففي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وبسقوط غرناطة في عام 897هـ/1492م سقط آخر معقل للمسلمين بالأندلس بيد الإسبان، الذين تمادوا في تهديداتهم على السواحل الشمالية للمغرب العربي. وبالتّزامن مع ذلك، تمكّن البرتغاليون بدورهم عام 903هـ/1498م من اجتياز رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب القارة الإفريقية، واضعين نصب أعينهم الوصول إلى مملكة القديس يوحنا بالحبشة، والتّحالف معه ضدّ المسلمين، ثمّ الوصول إلى الهند للقضاء على احتكار المسلمين لتجارة التّوابل، ومن جهة أخرى الولوج إلى البحر الأحمر والتّهديد باحتلال الحرمين الشريفين. (ابنزنبل، 1998، صفحة 214،210) (ابنأياس، 1404هـ/1984، صفحة 157،153)، وأمام هذا الخطر اضطرّت الدولة العثمانية إلى تغيير إستراتيجيتها الخارجية وهذا بتوقيف نشاطاتها التوّسعية في أوروبا وتوجيهها نحو البحار الشّرقية، وأصبحت بذلك في مواجهة القوى البحرية الأوروبيّة الكبرى على جبهتين، جبهة غربية في البحر الأبيض المتوسط وأُخرى شرقية على مستوى البحار الشّرقية.

وقد تمكّن العثمانيّون خلال هذه المواجهات من تحقيق انتصارات كبيرة في البحر الأبيض المتوسط، في حين عجزوا عن تحقيق ذلك في البحار الشرقية، وهذا ما يدفعنا لطرح الإشكالية التالية، كيف يمكن تفسير تحقيق البحرية العثمانية لإنجازات كبرى في البحر الأبيض المتوسط في حين لم تتمكن من ذلك في البحار الشرقية ؟

وتهدف هذه الدّراسة إلى إبراز أوجه الاختلافات بين مواجهات الأساطيل العثمانية لنظيراتها المسيحية في البحر الأبيض المتوسط وإنجازاتها، ومواجهتها لنظيراتها البرتغالية في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي.

ولمعالجة هذه الإشكالية ونظراً لطبيعة الموضوع كان الاعتماد على المنهج التّاريخي القائم على الوصف والتّحليل في عرض، مناقشة ومقارنة الأحداث المتعلّقة بالموضوع قيد الدّراسة.

2. عوامل تفوّق البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط

ارتبط الوجود العثماني في غرب البحر الأبيض المتوسط بقضية مسلمي الأندلس، فبعد سقوط غرناطة عام 1492، استنجد الأندلسيّون بالدّولة العثمانية التي لم يتأخر سلطانها بايزيد الثاني من تقديم العون والمدد لهم، وكلّف كمال رايس بذلك. (إيفانوف، 2004، صفحة 117)

وبعد تولّي السّلطان الأول سليم الأوّل السّلطة في الدولة العثمانية عام (917 هـ/1512م)، اهتم بتقوية القدرات البحرية لدولته، وهذا بتوسيع دار صناعة السفن(الترسانة الهمايونية) بغلاطة، وبناء المزيد من السّفن النّقلية

والحربية، حتّى أصبحت على عهده القوّة البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط تُضاهي قوة اسبانيا والبندقية مع بعض، وأصبح يسعى لبسطِ سيطرته على الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط' كما وسّع اهتمام دولته في اتّجاه سواحل المغرب العربي التي بدأت تتعرّض للتّحرشات الاسبانية خاصّة بعد استنجاد أهالي الجزائر به، وطلبهم الانضمام طواعية للدولة العثمانية منذ 924هـ/1519م. (دغيم، 1414هـ/1993م) بالإضافة إلى وجود قواعد مسيحية في كل من رودس وقبرص مالطة تهدّد السفن الإسلامية. وبصفة عامة يمكن القول أنّ العثمانيين كان لهم التفوّق في معظم مواجهاتهم مع الأساطيل المسيحية المتحالفة، ويعود هذه إلى عدّة عوامل نوجزها فيما يلي :

1.2 اعتماد الدولة العثمانية على القراصنة في غرب البحر الأبيض المتوسط:

كان البحّارة الأتراك قد عُرفوا واشتهروا لدى أهالي غرب البحر الأبيض المتوسط وفي الأندلس، قبل تدخّل العثمانيين رسمياً في المنطقة، وكان هؤلاء البحارة يجُوبون البحر الأبيض المتوسط بمبادرات فردية ويقومون خلالها بإعمال القرصنة تارة، ومناصرة الأندلسيين، والدفاع عن المغرب العربي من هجمات الإسبان على سواحله تارة أخرى (سامح، 1409هـ/ 1989، صفحة 147،148)، وأمام ضعف الحكّام المحليين والفراغ السياسي الذي تركوه في المنطقة أصبحوا يتمتعون بمكانة هامة وسط الأهالي، خاصة بعد الدور الكبير الذي قام به الإخوة بربروسا في هذا المجال. (دراج، 2012، صفحة 150،174،178،179) ومع مرور الزّمن أصبح هؤلاء البحّارة يعملون لصالح الدّولة العثمانية التي زاد اعتمادها عليهم، فقد كلّفت الإخوة بربروسا بنقل المورسكيين إلى المدن الساحلية الشمالية للمغرب العربي، وبمساعدة الأهالي على ضدّ التّحرشات الاسبانية. (القيسي، 2008، صفحة 95) وخلالها تمكّن خير الدين بربروسا خلالها من إقناع أهالي الجزائر بالانضمام للدولة العثمانية وأصبحت الجزائر أيالة عثمانية منذ 1519م. (دراج، 2012، صفحة 238،239)

كما انضمّ للأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط، العديد من الأندلسيين إلى الذين كانت لهم دراية كبيرة في الملاحة البحرية وفي الحروب ضد أعدائهم الإسبان، بالإضافة إلى استفادتهم من خبرة البحارة الأعلاج بعدما اعتنقوا الإسلام. (القيسي، 2008، صفحة 46)

2.2 وجود الجزائر كقاعدة متقدمة للعثمانيين في البحر الأبيض المتوسط

رغم البعد الجغرافي لايالة الجزائر عن مركز الخلافة في اسطنبول وقربها من إسبانيا، إلاّ أنها مثّلت دومًا سنداً للدولة العثمانية في مواجهتها للقوى المسيحية في البحر الأبيض المتوسط، التي اتّخذتها كقاعدة متقدمة لها في غرب البحر المتوسط، في حين نجد اليمن ورغم بعده الجغرافي عن أوروبا وبعده عن مركز البرتغاليين في غاو

بالهند، لم يلعب الدور المنوط به، بل ولم يعرف حتى الاستقرار بسبب رفض اليمنيين لتبعيتهم للدولة العثمانية، وبذلك شكل عبئاً عليها عوض أن يكون سنداً لها. ربما يعود ذلك إلى إدراك حُكّام الجزائر للخطر المحدق بالعالم الإسلامي، خاصة وأنّهم عايشوا ظروف سقوط الأندلس في عام 1492، وما ترتّب عنه من مآسي عاشها الأندلسيين، لهذا حين تعرضت الجزائر للتّحرشات الإسبانية طالبَ أعيانها المساعدة من الإخوة بربروسا، وهؤلاء بدورهم لبّوا النّداء، وحتّى أنّ انضمام الجزائر للخلافة العثمانية منذ عام 1519م كان بطلب رسمي منهم، لهذه الأسباب شكّلت الجزائر دوماً حليفاً قوياً ووفيًا للعثمانيين. (دراج، 2012، صفحة 136،128)

ونفس الأسلوب استعملهُ العثمانيون في البحر الأحمر والمحيط الهندي باعتمادِهم على قراصنة كانوا ينشطون لحسابهم الخاص، لكنهم فشلوا بسبب اختلاف الظروف الطّبيعية وطبيعة العدوّ، والكثير منهم وضعوا أنفسهم في خدمة الممالك الإسلامية في الهند.

3.2 تحييد البندقية وفرنسا من الصراع العثماني الأوروبي في البحر المتوسط.

3.2. 1. تحييد البندقية.

كانت البندقية منذ القرن 15م غير ميّالة إلى محاربة العثمانيين، وهذا حفاظاً على مصالحها التجارية وامتيازاتها بها، بل على العكس كانت تسعى لإقامة علاقات طيبة معها، ففي عام 1517 عقدت مع الدولة العثمانية معاهدة تجارية، تحصّل بمقتضاها التّجار البنادقة على عدة امتيازات في الدولة لعثمانية وأصبحت لهم الحرية في ممارسة نشاطهم التجاري في مختلف موانئها، وتمّ تجديد هذه الاتّفاقية عام 927هـ/1521م، لكن بعد استيلاء العثمانيين لجزيرة رودس تدهورت هذه العلاقات، وبهذا يُمكن القول أنّ العلاقات بين الطّرفين تراوحت بين الحياد والسّعي لإقامة علاقات وُدّية. (المشهداني، 2007) (الرئيسي، 1428هـ/2007، صفحة 73)

وخلال فترة حكم السّلطان سليمان القانوني سعت البندقية للحفاظ على علاقاتها الودية مع العثمانيين، خاصة بعد تعاظم قوة الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط، رغم هذا وقفت إلى جانب التحالف المسيحي في معركة بروزة في عام 944هـ/ 1538م، هذا ما زاد في ضغط العثمانيين عليها، رغم هذا عملت البندقية على الحفاظ على صداقة العثمانيين. (الرئيسي، 1428هـ/2007، صفحة 133)، وبعد ضمّ العثمانيين لقبرص وطرد البنادقة منها عام 977هـ/1570م، انضمّت البندقية مرة أخرى للتّحالف المسيحي أثناء معركة ليبانتو عام 978هـ/1571م، ورغم هزيمة العثمانيين عادت البندقية من جديد لسياسة التودد والتقرب من العثمانيين، وقدّموا لهم تنازلات كبيرة، وهذا حفاظاً على مصالحهم التّجارية. (الرئيسي، 1428هـ/2007، صفحة 135)

3.2. 2. تحييد فرنسا

بحكم موقع فرنسا الجغرافي الذي كان يتوسط بين المملكتين النمساوية والاسبانية اللتين كنتا تحت حكم آل الهابسبورغ، اندلع النّزاع بينها وبين اسبانيا على تزعّم أوروبا، وسعت فرنسا لاستمالة الدّولة العثمانية إلى جانبها، فالتّقارب الفرنسي العثماني كان سببه التّحالف ضد اسبانيا والنمسا، وبذلك نجد أن فرنسا أرادت من وراء تقربّها من الدولة العثمانية أن تستقويَ بها على القوى الأوروبية المعادية لها، وبذلك ضمن حماية الأسطول العثماني لسواحلها، بالمقابل استغلّت الدولة العثمانية هذه الأوضاع والتوازنات وعملت على توظيفها لصالحها، وقد توّج هذا التقارب بعقد معاهدة سلام بين الطرفين في عام941هـ/1535م، تحصّلت بمقتضاها فرنسا امتيازات تجارية في الدولة العثمانية، بهذا تم إخراج فرنسا من التحالف المسيحي الأوروبي. (المشهداني، 2007، صفحة 80،89)

4.2. طبيعة المواجهات الأوروبية العثمانية من خلال معركتي بروزة وليبانتو.

لم يحدث طيلة القرن16م أن اشتبك الأسطول العثماني مع أساطيل الدّول الأوروبية في معارك بحرية كبيرة في أعالي البحار، إذا ما استثنينا معركتي بروزة والليبانتو، بحيث كانت معظم العمليات البحرية تجمع بين الحصار البحري والجيش البري، وأحياناً أخرى كان الأسطول العثماني يكلّف بدعم جانب دعم الحملات البرية والحفاظ على أمن الطرقات التجارية أو مطاردة القراصنة الأوروبيين، أو الإغارة على بعض السّفن المسيحية. (kuru, 2009, pp. 84,85)

4.2. 1 معركة بروزة

كانت من أكبر المعارك البحرية التي خاضها الأسطول العثماني خلال القرن 16م بقيادة خير الدين بربروس، ضد الأسطول المسيحي المشترك بقيادة أندريا دوريا، والتي دارت رحاها بالقرب من ميناء بروزا غرب اليونان. (خليفة، 1438هـ/2017، صفحة 120) (سرهنك، 1312هـ، صفحة 38،89) ، كان هذا الأسطول الضّخم الذي أُطلق عليه "أسطول الرابطة الصليبية المقدسة"، يتشكل من جنسيات مختلفة (إسبانيا، ألمانيا، البندقية، البرتغال ومالطا)، في حين كان الأسطول العثماني متجانساً من حيث التركيبة والهدف، ومتكون من سفن صغيرة وخفيفة يسهل عليها الحركة والمناورة محمّلة بمدافع بعيدة المدى وأكثر تطوّراً من تلك التي كانت على سفن الأسطول المسيحي، هذا ما سمح للعثمانيين بإلحاق الهزيمة بالأسطول المسيحي رغم تفوق عدد سفنه وجنوده، وقد أثار هذا الانتصار هلعاً كبيراً في أوروبا. (دراج، 2012، صفحة 299)

4.2. 2. معركة ليبانتو *Lépanto* 1571م وتداعياتها

لكن خلال الربع الأخير من القرن 16م أدخلت الدول الأوروبية تقنيات جديدة على سفنها البحرية، هذا ما منحها التفوّق البحر وظهر هذا جليًا معركة ليبانتو *Lépanto* عام 978هـ/ 1571م، التي دارت رحاها بين الأسطولين العثماني والمسيحي المشترك(المسمى الأرمدة)، إذ تلقى الأسطول العثماني ضربة موجعة بتلقيه هزيمة ساحقة، رغم مساندة أساطيل كل من الجزائر طرابلس الغرب، تونس ومصر له. (فكاير، 2013، صفحة 179)

ورغم هذا الانتصار الباهر ذي حققه الأسطول المسيحي الذي كانت له فوائد معنوية للأوروبيين، حتى أنّ البابا بيوس الخامس (1566 – 1572) اعتبره بداية النهاية للدولة العثمانية، إلاّ أنّه في واقع الأمر لم تكن له فوائد إستراتيجية، فالحلف الصّليبي كان هدفه الأساسي إنهاء الوجود العثماني وهذا مستحيل الحدوث بعد معركة واحدة، حتّى أنّ هذا التحالف زال بوفاة البابا بيوس الخامس في 979هـ/1572. (سعدية، 1418هـ/ 1997م، صفحة 161،200)

لكن من جهة أخرى بيّنت هذه المعركة التّراجع التّدريجي للبحرية العثمانية بعد وفاة السّلطان سليمان القانوني Sultan Süleyman، فقد كانت فترة حكم خليفته سليم الثّاني (973– 981هـ/1566– 1574م) مرحلة انتقالية في السياسة البحرية وفي التاريخ العثماني بشكلٍ عام، فلم يعد السلطان صاحب القرار الأوّل في توجيه السياسة البحرية لدولته، وكان من مظاهرها تركيز القوة البحرية العثمانية على الجهات الشرقية من البحر الأبيض المتوسط وتجلّى هذا في سعيه لفتح جزيرة قبرص (القيسي، 2008، صفحة 226،227). وقد تزامن ذلك مع ثورة الموريسكيين ضد حكومة إسبانيا(975– 977هـ/ 1568 –1570م)، الذين وجّهوا نداء استغاثة للعثمانيين، إلاّ أنّهم لم يتحمسّوا لمساعدتهم هذه المرة، رغم أنّهم كانوا يرغبون في ذلك، ومن دون قصد تخلّوا عنهم لانشغالهم في حربهم ضد البندقية وهذا لاستعادة قبرص، وكلّف السلطان والي الجزائر علج علي بمساعدتهم مهمة مساندتهم. (الشناوي، 1980، صفحة 925)

تمكّن العثمانيون من السيطرة على قبرص، وهذا ما سمح لهُم بتأمين طرق المواصلات بين الأناضول ومصر، وتسنّى لهم القضاء نهائياً على نفوذ البندقية في المنطقة وتمكّنوا من فرض هيمنتهم على الجزء الشّرقي من البحر الأبيض المتوسط، لكن في المقابل فشل الموريسكيون في ثورتهم، وضاعت آخر فرصة على المسلمين لاسترداد الأندلس. (القيسي، 2008، صفحة 234)

3. إخفاقات البحرية العثمانية في البحار الشرقية

تمكّن البرتغاليّون بعد اجتيازهم لرأس الرّجاء الصّالح ووصولهم إلى الهند عام903هـ/1498م، من بناءِ إمبراطوريتهم الاستعماريّة على سواحل البحار الشرقية وجزرها بسرعة مذهلة، مستغلين غياب قوة إسلامية كبرى

بإمكانها ردعهم، ومستخدمين في ذلك أساطيلهم ومعارفهم البحرية للسّيطرة على المحيط الهندي وسواحله، وهذا ما مكّنهم من تحويل طرق التجارة العالمية، من البحر الأحمر إلى رأس الرّجاء الصالح والمحيط الأطلسي. (ozbaran, 1990, p. 2)

وكان من نتائج ذلك أن تعرّضت الإمارات الإسلامية الواقعة على سواحل المحيط الهندي، في كل من الهند وشرق إفريقيا والخليج العربي لهجمات شرسة قام بها البرتغاليون منذ بداية القرن 16م، وأصبحت بذلك بحاجة ماسة لمساعدة العثمانيين. (ابنزنبل، 1998، صفحة 210،214) الذين تمكنوا بعد ضمّهم لمصر عام 1517م من الولوج إلى البحر الأحمر والمحيط وأصبحت بذلك المنطقة ساحة للصّراع بين الدولة العثمانية ودولة البرتغال، حيث كانت الكفة في معظم المواجهات لصالح البرتغاليين. (بصيلي، 1965/1964، صفحة 129،139) (Alpers, 1975, p. 58) ويعود هذا إلى عدّة عوامل، نذكر من بينها:

1.3 تطوّر وسائل وتقنيات الملاحة البحرية لدى البرتغاليين:

تمكّن البرتغاليون منذ القرن15م من تطوير سفنهم البحريّة وتقنياتهم الملاحية، ومن مظاهرِ ذلك أن توصّلوا إلى بناءِ نوعٍ من جديد السّفن الشّراعية الكبيرة تُسمّى الكارڤيل *Caravel*، التي تتميّز بارتفاعها الكبير عن سطح البحر، تمّ تزويدها بأحدثِ الأسلحة والوسائلِ البحريّة آنذاك ونخصُّ بالذّكر الإسطرلاب والبوصلة، وأصبح بإمكانها الإبحار في أعالي البحار والمحيطات وبأقلّ تكلفة، وتخلّوا بذلك عن الملاحة التّقريبية والمُساحلة، وكان هذا من أهم العوامل التي سمحت لهم بالتّفوق على العثمانيين. (بوشرب، 1997، صفحة 171،172)

في حين كانت نوعية السّفن العثمانية التي واجهوا بها البرتغاليون في المحيط الهندي والبحار الشرقية خفيفة وسريعة الحركة وتسير في معظمها بالمجاديف من نوع القادس(Galley) ، بالإضافة إلى أخرى شراعية تُسمى الكاليوت (Galliotte)، وكلّها كانت تقنياتها وتجهيزاتها أقلّ شأناً من نظيرتها البرتغالية وبالتّالي لم تكن مهيّئة لعبور المحيطات ولم يكن في مقدورها مواجهة السفن البرتغالية الكبيرة.(kuru, 2009, p. 88)

كما أنّ العثمانيين لم يتعوّدُوا على خوض معارك محيطية بل معظم الإنجازات والانتصارات التي حقّقوها كانت في البحر الأبيض المتوسط وبذلك اعتادوا على حروب البحار، (عدوان، 2019، صفحة 52) وبصفة عامة لم يكن بمقدور سفنهم الإبحار لمسافات بعيدة بل لمسافات محدودة وعند حدود السواحل(الملاحة الساحلية)، هذا لأنّهم لم يُولُوا عناية للسّفن الشّراعية الكبيرة، هذا ما حال دون تحقيقهم لانتصارات بحريّة كبيرة أمام السّفن الضّخمة للأساطيل البُرتغاليّة المُجهّزة للإبحار والمناورة في أعالي البحار وفي المحيطات. (القيسي، 2008، صفحة 37).

2.3 إنشاء البرتغاليين للحصون والقواعد العسكرية:

بعد أن تمكّن البرتغاليون من فرض سيطرتهم على الملاحة البحرية في المحيط الهندي، كلّف ملك البرتغال قائد أساطيله البحرية هناك فرانسيسكو دي الميدا Dom *Fransisco de Almeida* بإنشاء نيابة له بالهند *Estado da india*، وعيّنه عليها حاكم عام برتبة نائب له *Captain-general and governor of India*، واتّخذ هذا الأخير من مدينة غاو مقرّاً لها، وأصبحت هذه القاعدة نقطة انطلاق للإغارةِ على السّفن الإسلامية هناك. (حنظل، 1997) (Mery, 1854)

وبما أنّ دولة البرتغال كانت بعيدة جدًّا عن ممتلكاتها في المحيط الهندي، كان من الصّعب جداً عليها إيصال الإمدادت إلى هناك في حالة حدوث توترات، لهذا عمل قادتها العسكريين هناك خلال القرن16م على بناء الحصون(Fortalezas)، خاصة في المناطق المطلة على المحيط الهندي وبعض الجزر المهمة الواقعة فيه، وهذا لحماية القواعد التّجارية(Feitorias) هناك وتأمين الطرق التجارية إلى الهند، واتّخذها البرتغاليون كقواعد بحرية وكنقاط لبسط سيطرتهم على المحيط الهندي. (بصيلي، 1965/1964، صفحة 138) (بوشرب، 1997، صفحة 185)

3.3عدم تمكن العثمانيين من إيجاد حلفاء أقوياء لهم في البحار الشرقية.

لم يتمكن العثمانيون من إيجاد حلفاء أقوياء يستندون إليهم في حروبهم ضد البرتغاليين في الخليج العربي والمحيط الهندي، بل على العكس من ذلك فقد تحالف الصّفويون مع البرتغاليين في صراعهم ضد العثمانيين، وهذا ما صعّب من مهمتهم هناك. (جمعة، 1976، صفحة 18،28،48)

كما أنّ أهالي المناطق التي خضعت للدّولة العثمانية، سواء في اليمن أو الخليج العربي أو الهند وحتى الحبشة لم يكونوا يثقون في العثمانيين وكانوا ينظرون إلى تواجدهم هناك بعين الرّيبة، فبعد الانتصارات التي حقّقها الإمام أحمد بن إبراهيم، بفضل المساعدات التي قدمها له العثمانيون في حربه على الأحباش وحلفائهم البرتغاليين، خشِيَ من بقائهم في المناطق التي سيطرَ عليها على أرض الحبشة، لهذا طلب منهم الرّحيل، في الوقت نفسه وصلت مساعدات برتغالية كبيرة للأحباش، وكان هذا من أسباب تقهقر وتراجع حركته الجهادية في الحبشة، ثم استشهاده في عام949هـ/ 1543م.(Alvares, 1881, p. 151)

وفي عام944هـ/1538م أرسلت الدولة العثمانية حملة بحرية ضخمة بقيادة سليمان باشا الخادم، والتي كان من أهدافها ضمّ اليمن نهائياً، وتلبية نداء الاستغاثة الذي تقدّم به الهنود لمساعدتهم ضدّ البرتغاليين (العبدلي، 1351هـ، صفحة 96) (زيدان، 1994، صفحة 121)، ومنه بسط سيطرتها على المحيط الهندي، لكن في نهاية

المطاف لم يتمكّن سليمان باشا الخادم لا من مساعدة الهنود لعدم وفائهم بمساعدتهم له، ولا من إقامة تحالف إسلامي في المحيط الهندي كما كان مُسطّراً له. (النهروالي، 1387هـ/ 1967م، صفحة 84)، وتُرجع المصادر التاريخية المعاصرة أسباب ذلك، إلى سوء معاملة سليمان باشا الخادم للقيادات المحلية خاصة في اليمن بعد غدره وإعدامه لأميرها عامر بن داود الطاهري، وهذا بحجة تعاونه مع البرتغاليين، وخشي حكام إمارات الهند الإسلامية منه بعد هذه الحادثة. (الموزعي، 1407هـ/1986م، صفحة 24،15) (الميلباري، 1405هـ/1985م، صفحة 227) (shaw, 1976, p. 100)

ومنه نستنتج أنّ نجاح العمليات العسكرية لا يعود بالضّرورة إلى ضخامة الأساطيل ولا إلى تعداد الجيوش فقط وإنّما إلى نوعية السّفن والتّقنيات التي تعتمدها وإلى والقدرة على كسب حُلفاء أقوياء يُمكن الاستعانة بهم عند الضّرورة وهذا ما لم يوليه سليمان باشا الخادم أهمّية. (بستان، 2009، صفحة 40)

3. 4 صعوبة وصول العثمانيين إلى البحار الشرقية وتعدد جبهاتهم.

كان من الصّعب على العثمانيين خلال القرن 16م تحقيق انتصارات في أرجاء المحيط الهندي الواسعة، في نفس الوقت كانوا في مواجهات أخرى مع القوى الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط حيث كان الجزء الأكبر من الأسطول، ولانشغالهم بحروبهم البرية في أوروبا وضد الدّولة الصّفوية، بالإضافة إلى فتح الروس لجبهةٍ جديدةٍ في القوقاز بعد احتلالهم للخانيات الإسلامية في حوض الفولغا (خانية قازان kazan في عام959هـ/ 1552م وأستراخان Astrahan في عام963هـ/1556م)، ودخل الطّرفين العثماني والروسي في حربٍ منذ عام976هـ/ 1569م عُرفت بحرب Don– Volga الدون فولجا. (الرئيسي، 1428هـ/2007، صفحة 118)

كما أنّ العديد من المعارك التي دخلتها الدولة العثمانية ضد البرتغاليينّ لم تقم على خطط مدروسة ولا على استراتيجيات محددة، وإنّما كانت في معظمها كانت تلبية لنداءات استغاثة موجهة من قبل بعض زعماء الإمارات الإسلامية بالهند أو من طرف بعض المشايخ العربية. (الرئيسي، 1428هـ/2007، صفحة 118)

كمّا أنّ افتقار مصر للأخشاب صَعّب من هذه المهمة، إذ كان على العثمانيين نقلها من الأناضول إلى ميناء الإسكندرية، ثمّ نقلها براً إلى قاعدتهم البحريّة في السويس، حيث يقومون ببناء سفنهم الحربية هناك، وكلّ هذا يعود لعدم وجود منفذ بحري بين البحر البيض المتوسط والبحر الأحمر، وأثناء نقلهم لهذه المعدّات كان يعترضهم القراصنة المسيحيين المتواجدين في رودس وفي قبرص قبل فتحهما، هذا ما كان يعطّل عملية بناء المزيد من السّفن، لهذا أرادوا ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بواسطة قناة، لكنهم لم يتمكّنوا من ذلك بسبب الصعوبات التقنية التي واجهتهم في ذلك. (cazale, 210, pp. 48,50)

لهذا كان على السّلطان سليم الأول أن يقوم بتأمين طرق المواصلات البحرية بين اسطنبول ومصر، ولن يتسنّى له ذلك إلاّ باجتثاث بقايا الصّليبيّين من جزيرة رودس وبدأ يعدّ العُدّة لذلك منذ 925هـ/1519م، إلّا أنّه توفي في السّنة الموالية قبل أن يتسنّى له ذلك. (خليفة، 1438هـ/2017، صفحة 82،81)

وبعد تولّي السّلطان سليمان القانوني Sultan Süleyman السّلطة عام 926هـ/ 1520م، عمل على إتمام مشروع والده المتمثّل في فتح جزيرة رودس، وتمكّن من ذلك في عام 928هـ/1522م التي كانت تعتبر آخر قلعة مسيحية في شرق المتوسط وكان هذا بعد مقاومة شرسة من قراصنة فرسان القديس يوحنا الذين انتقلوا إلى مالطة. وقد سمح هذا الإنجاز باتّخاذ رودس كهمزة وصل بين عاصمة الخلافة ومصر والشّام، وبذلك استكملت البحريّة العثمانية تفوّقها في شرق البحر الأبيض المتوسّط. (اوزوتونا، 1998، صفحة 264،263،262)

3. 5 تغيير العثمانيين لأسلوبهم الحربي في مواجهة السّفن البرتغالية في البحار الشرقية.

بعد صراعهم الطويل مع البرتغاليين في البحار الشرقية، أدرك العثمانيون أنّ أسلوب العمليات الحربية البحرية التي يمارسها البرتغاليون في المحيط الهندي تختلف عن نظيره في البحر الأبيض المتوسط، فعلى خلاف الحال في المُحيط الهندي، كانت معظم العمليات البحرية في البحر الأبيض المتوسط برمائية، يُراد منها الاستيلاء على مدن أو على قلاع، وقد اتّبع القادة العثمانيون في المحيط الهندي من قبل نفس الأسلوب، وهذا ما لم يكن متلائماً مع طبيعة الحروب البحرية في المحيط الهندي، ولعلّ هذا ما يُفسّر تواضع الانتصارات التي حققها العثمانيون في هذه الفترة، رغم ضخامة الأساطيل التي صخّروها لهذا الغرض، وأدركوا أنّ القوة العسكرية البرتغالية تكمن في البحر، وفيه تكمن نقطة ضعفهم، لهذا لم تكن لا القلاع ولا الحصون البرتغالية من ضمن اهتماماتهم، ولا حتّى احتلال الأراضي، وإنما أصبحت أهدافهم تتمثل في تدمير السفن البرتغالية والاستيلاء عليها إن أمكن، وبهذا يكون أميرالات البحر العثمانيين في المحيط الهندي قد استبدلوا أسلوبهم القديم المعتمد في البحر البيض المتوسط، بأسلوب جديد يقوم مهاجمة السفن التجارية البرتغالية بأساطيل صغيرة، وأصبحت بذلك عمليات القرصنة الإستراتيجية الجديدة للعثمانيين في المحيط الهندي، وقد تمكن العثمانيون بواسطة هذه الإستراتيجية من السيطرة على تجارة الهند. (كازالي، 2018، صفحة 199،198)

وبهذا لم يعد يهمّ العثمانيين مساحات الأرض التي قد يستولوا عليها بل عدد السفن المدمّرة والمأسورة، وقد سبّب هذا الأسلوب خسائر كبيرة للبرتغاليين، كما أضعفت من سيطرتهم على تحركات السفن الإسلامية التجارة. (كازالي، 2018، صفحة 199،198)

4.الجدول

أ– سلاطين الدولة العثمانية

السلطان	فترة حكمه
بايزيد الثاني	1481 – 1412م
سليم الأول	1512- 1520م
سليمان القانوني	1520 – 1566م
سليم الثاني	1566 – 1574م
مراد الثالث	1574 – 1595م

ب– ملوك إسبانيا وآل الهابسبورغ

الملك	فترة حكمه
فاردناند الثاني	1479 – 1516 م
ماكسميليان الثاني	1503 1547م
شارل الخامس	1519- 1556م
فيليب الثاني	1556 – 1598م

ج– ملوك دولة البرتغال

الملك	فترة حكمه
إمانويل	1595 – 1521م
يوحنا الثالث	1521 – 1557م
دون سيبستيان	1557 1578م
الكاردنال هنري	1578 - 1580م

المصدر: (القيسي، 2008، صفحة 337)

5.خاتمة:

ومن خلال هذه الدراسة المقارنة بين نشاط البحرية العثمانية في مواجهة القوى الأوروبية الصليبية في البحر الأبيض المتوسط، وفي مواجهتها للأساطيل البرتغالية في البحار الشرقية، استخلصنا النتائج التالية:

أ. تمكّن العثمانيين خلال القرن 10هـ / 16م من فرض سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط رغم وجود دول أوروبية منافسة لها تمتلك أساطيل قوية، وفي هذا الإطار حققت انتصارات كبيرة عليهم.

ب. لقيت أساطيل الدّولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط دعماً كبيراً من طرف أساطيل حلفائها خاصة من الجزائر ومصر، بالمقابل لم يتمكن العثمانيون من ايجاد حلفاء أقوياء لهم في البحار الشرقية.

ت. تمكنت الدولة العثمانية من استمالة بعض الدول الأوروبية إلى جانبها في صراعها في البحر الأبيض المتوسط ونخص بالذكر فرنسا.

ج. بحكم عدم وجود منفذ بحري بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، اعتمدت الدولة العثمانية في مواجهتها للبرتغاليين في البحار الشرقية على قاعدتي السويس في البحر الأحمر والبصرة في الخليج العربي.

د. حتى يتمكن البرتغاليون من التّحكم في البحار الشرقية أنشؤوا العديد من الحصون وهذا ما صعّب من مهمة مواجهة العثمانيين لهم.

هـ. كان لوجود الدّولة الصّفوية وتحالفها مع البرتغاليين دور كبير في إشغال العثمانيين عن مواجهاتهم الحقيقية مع الدول الأوروبية ومساعدة الأندلسيين في ثوراتهم ضد اسبانيا.

و. كانت الأساليب والوسائل التي اعتمدها البرتغاليون في البحار الشرقية تختلف عن تلك التي كانت معروفة لدى العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما لم يسمح لهم بتحقيق انتصارات كتلك التي حققوها في البحر الأبيض المتوسط.

ي. كانت بعض المعارك البحرية التي خاضتها الدولة العثمانية ضد القوى المسحية في البحر الأبيض المتوسط، متزامنة مع نظيراتها في البحار الشرقية ونخصّ بالذّكر حملة سليمان باشا على الهند مع معركة بروزة في عام 1538م، والحملة البرتغالية على السويس عام 1541م مع حملة شارلكان على الجزائر عام 1541موغيرها، مما يقودنا إلى الاحتمال بوجود تنسيق بين القوى المسيحية على الجبهتين ترعاه البابوبة آنذاك.

وختاماً يمكننا القول أنّ مواجهات الدّولة العثمانية ضد القوى الأوروبية وهي متحالفة كانت أشدّ ضراوة وكان التّفوق في غالب الأحيان لصالحها، في حين كانت مواجهة الأسطول العثماني لنظيره البرتغالي مُنفرداً ورغم ذلك لم يتمكن العثمانيون من تحقيق الانتصارات التي حقّقوها في البحر الأبيض المتوسط.

ومن التّوصيات التي يمكن تقديمها، وجوب الاهتمام أكثر بالمواضيع التي تتضمن إشكالياتها دراسة مقارنة لمواضيع تتقاطع فيما بينها زمانياً، التي تسمح لنا بالوصول إلى العديد من الاستنتاجات قد تفتح المجال لإشكاليات أخرى قد تصلح لدراسات جديدة.

6. قائمة المراجع:

باللغة العربية

1. أحمد بن فضل بن علي بن محسن العبدلي. (1351هـ). *هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن*. المطبعة السلفية ومكتبتها. صنعاء. اليمن.
2. أحمد بوشرب. (1997). *داسات ووثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه*.مطبعة النجاح الجديدة الرباط، المملكة المغربية
3. أحمد زين الدين المعبري الميلباري. (1405هـ/1985م). تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين. مؤسسة الوفاء.بيروت. لبنان.
4. إدريس بستان. (2009). أهمية ترسانة جدة والسويس ومخا في الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر. بحوث الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني (صفحة 37، 43). مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية ircica. اسطنبول. تركيا.
5. إدريس ناصر الرئيسي. (1428هـ/2007). العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن السادس عشر: دار الهداية للطّباعة والنّشر. بيروت.لبنان.
6. الرمال ابن زنبل. (1998). *آخرة الممالك*. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب. مصر.
7. الميلاري إسماعيل سرهنك. (1312هـ). حقائق الأخبار عن دول البحار . المطبعة الاميرية بولاق، مصر.
8. بديع جمعة. (1976). *تاريخ الصفويين وحضارتهم*. دار الرائد العربي.القاهرة ، مصر.
9. جانكارلو كازالي. (2018). *رياس البحر الهندي- عصر الاستكشاف العثماني*. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.الكويت.
10. جورجي زيدان. (1994). *مصر العثمانية*. دار الهلال.الاسكندرية. مصر.
11. حاجي خليفة. (1438هـ/2017). *تحفة الكبار في أسفار البحار*. دار البشير للثقافة والعلوم.أبو ظبي. الإمارات العربية المتحدة.
12. سعيد علي البيشي سعدية. (8 محرم, 1418هـ/ 1997م). الجهاد البحري العثماني من خلال معركة ليبانتو: كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، قسم الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، ماجستير (غير منشورة) في التاريخ الحديث والمعاصر. مكة، المملكة العربية السعودية

13. شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل الموزعي. (1407هـ/1986م). *الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت عدالة آل عثمان*. دار التنوير للطباعة والنشر.بيروت، لبنان.

14. عبد الجليل الشاطر بصيلي. (1965/1964). الصّراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق إفريقيا والبحر الأحمر. المجلة التاريخية المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر. 129، 139.

15. عبد العزيز الشناوي. (1980). *الدّولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها*، مكتبة الانجلومصرية.القاهرة، مصر.

16. عزيز سامح. (1409هـ/ 1989). الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. دار النهضة للطباعة والنشر. بيروت ، لبنان.

17. عصام محمد علي عدوان. (2019). الصراع العثماني البرتغالي خلال القرن السادس عشر. مجلة جامعة القدس، القدس، فلسطين، ص43، 57

18. فالح حنظل. (1997). العرب والبرتغال في التاريخ. منشورات المجمع الثقافي. أبوظبي ، الامارات العربية المتحدة.

19. قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي. (1387هـ/ 1967م). البرق اليمتني في الفتح تاعثماني(917-990هـ) . دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر،الرياض، السعودية.

20. محمد بن احمد الحنفي ابن أياس. (1404هـ/1984). بدائع الزّهور في وقائع الدّهور. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر.

21. محمد دراج. (2012). *الدّخول العثماني إلى الجزائر دور الإخوة بربروس(1512- 1543)*. شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع. الجزائر.

22. محمود انيس عبد الخالق القيسي. (مارس, 2008). النشاط البحري العثماني في البحر الأبيض المتوسط. بغداد، جامعة بغداد، العراق: جامعة بغدادا، رسالة دكتوراه في فلسفة التاريخ الحديث، غير منشورة.

23. محمود سيد دغيم. (1414هـ/1993م). تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية الخليفة العثماني سليم الثاني 1574. *الندوة الدولية حول الحضارة العربية الإسلامية وعالم البحار* (صفحة 393، 394). منشورات اتّحاد المؤرخين العرب.القاهرة. مصر.

24. نيكولاي إيفانوف. (2004). *الفتح العثماني للأقطار العربية*. دار الفرابي. بيروت – لبنان.

25. ياسر عبد الجواد المشهداني. (2007). النّفوذ البرتغالي وأثره على الهند الاسلامية(904- 929هـ/ 1498-1514م). *مجلّة التربية والعلم* ، جامع الموصل، العراق. ص.25،38

26. يلماز اوزوتونا. (1998). *تاريخ الدولة العثمانية*. مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، تركيا.

باللغات لأجنبية

27. Alpers, Edward. (1975). Ivory and slaves in east Africa,Heinemann. London,united kingdoom

28. cazale, Giancarlo. (210).The ottoman age of exploration. oxford university presse. united kingdoom

29. Father fransisco Alvares .(1881) .Narrative of the portugueuse embassy to abbyssinia during the year (1520- 1527) hakluyte societe .london , united kingdoom.

30. Léopold Mery .(1854) . Emmanuel, ou la domination dans les indes orientales au 16e siecle. Tours, ad, mameyet, cie imprimeurs- libraires. paris.France.

31. Mehmet kuru(9 10 2009). Relation betwen ottoman corssairs and the imperial navy in the sextenth century. school of arts and sociael sciences , sabanci university,master of art. Istambul, Turkey.

32. Salih ozbaran, (30octobre1990). Ottoman empire and the spice routes in the sextenth. integrale study of Internationnal seminair for UNESCO integrale study of dialogue " the infliance of the silkroads in turkish culture an art, izmir. Turkey.

33. Stand ford shaw .(1976) .History of the ottoman *empire and modern Turkey (1280-1808).* Vaile-ballou, press jnc, Bringhamton. New york.u s a.

6. ملاحق:

الخطاب الذي أرسله ألفنسو البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصّفوي

الترجمة من البرتغالية الى الانجليزية للاستاذ جيراي بيرش عضو جمعية أعالي البحار الملكية البريطانية

LETTER WHICH THE GREAT AFONSO DALBOQUERQUE WROTE, AND SENT BY RUY GOMEZ TO THE XEQUE ISMAEL

"Very great and powerful Lord among the Muzes, Xequo Ismael: Afonso Dalboquerque, Captain-General and Governor of India, in behalf of the very high and very powerful King D. Manuel, King of Portugal and of the Algarves on this side and on that side of the sea, in Africa Lord of Guinea, and of the conquest, navigation, and commerce of Æthiopia, Arabia, Persia, and India, and of the Kingdom and Lordship of Ormus, and of the Kingdom and Lordship of Goa: I give you to know that when I captured the city and kingdom of Goa, I found therein your ambassador, to whom I showed great honour, treating him as ambassador of so great a King and Lord, and I looked to all his affairs just as if he had been sent to these parts to the King of Portugal. And whereas I am informed that the King D. Manuel, my Lord, would be pleased to have an understanding and alliance and intercourse with you; therefore I send to you this present messenger to whom you are to give credit in respect of all things which he shall relate to you on my behalf, for he is a knight and servant of the King my Lord, a man well-versed in military matters, bred up in arms according to our custom, and of all the affairs of the kingdom of Portugal he will be competent to give you a very good account.

"You are well-informed how it was that I gained the city and kingdom of Ormuz in accordance with the commands of the King, my Lord, and how from that time forward I strove to gain information concerning your estate, power, and command, and desired to send messengers to you, if the business of Ormuz had not miscarried, which I hope to God will soon be re-established, for I am in expectation of going thither in person, and thence I will endeavour to have an interview with you on the coast of the sea and harbours of your kingdom; for the powers which I carry from the King my Lord, of ships and mariners, are for destroying and casting out the ships of the Sultan that may enter India and desire therein to establish themselves—which deed, with the help of God, we have brought to pass, for the Sultan's captain, Mirocem, and his fleet were routed at Diu,' and all his ships and artillery taken, and all his people killed, and now I have put them to flight and gained the city of Goa and all its fleet and cast all the enemy out of it, as your ambassador will relate to you.

"And whereas I have been informed that he is your enemy and makes war upon you, I send you this news, offering to you for employment against him my person and fleet, and the aid of the King my Lord, to help to destroy him, and I will be against him whensoever you shall require this of me. And if you desire to destroy the Sultan by land, you can reckon upon great assistance from the Armada of the King my Lord by sea, and I believe that with small trouble you must gain the lordship of the city of Cairo, and all his kingdom and dependencies, and thus the King my Lord can give you great help by sea against the Turk, and thus his fleets by sea and you with your great forces and cavalry by land can combine to inflict troublous injuries upon them.

"And in India he has great fleets wherewith he can help you. And thus you will gather that you ought to desire to obtain alliance and co-operation with so great a king as is the King my Lord by sea and by land, and you ought to send him your ambassadors, for he will be very glad to see any one who is competent to give an account of your kingdoms and your dependencies. And if God grant that this intercourse and alliance be ratified, come you with all your power against the city of Cairo and the lands of the Grand Sultan which are on the borders of your own, and the King my Lord shall pass over to Jerusalem and gain from him all the land on that side. And for the sake of correct information with respect to your intentions in this matter, it is befitting that you should send your messengers, and through them get a reply from the King my Lord, and meanwhile let me be advised of what you wish me to do, or in what quarter the fleet of the King my Lord can proceed and inflict most injury upon the Sultan for your service."

المصدر: (الشيخ، 1421هـ / 2000م، صفحة 156،173)